خاتمة المطاف

سأنعم قريباً بالعودة إلى دمشق، وسأتمتع من سحرها الغالب على كل طرف من أطرافها، على جُرد جبالها وغُلب حدائقها، وإذا كان في البعد عنها حيناً من الدهر فائدة من الفوائد، فما هذه الفائدة إلا زيادة الشعور بالحنين إلى ظلال بساتينها وهدوء أوديتها ورقة هواء جبالها وعذوبة ماء عيونها، ولقد كنت في بعض الأوقات وأنا في مدينة من أعظم مدن العالم لا أعدل بدمشق الدنيا بحذافيرها، سأنعم قريباً بالعودة إليها وفي ذهني ذكر كثيرة من رحلتي، وإذا كان المجال لا يتسع للكلام على عيوب بعض الأمم وفضائلها، فإنه يتسع لخاطر واحد من الخواطر أحببت أن أجعله خاتمة المطاف.

لي صديق في لبنان أستاذ في الجامعة الأميركية في بيروت درس في إحدى جامعات أميركة وتزوج فتاة أميركية من (فيلادلفيا) وقد كتب إلي كتاباً من بيروت، وألح عليّ فيه وألحَّت زوجته وألح أهلها في زيارتهم في (فيلادلفيا)، فما وسعني بعد هذه الإلحاحات الكثيرة إلا تلبية الدعوة، فغادرت إلى واشنطن في يوم شتاء، وقصدت إلى فيلادلفيا، وهي تبعد بالقطار ثلاث ساعات إلا قليلاً، لا أريد أن

أصف شيئاً من هذه الزيارة، فقد طويت خواطري كلها، ولكني لم أطو خاطراً واحداً منها، فقد كنت في القطار أصوّب النظر وأصعده مرة في مشاهد الطبيعة ومرة في الجدران الواقعة على مقربة من خط الحديد، وأذكر أنني قرأت على أحد هذه الجدران الإعلان الآتي: ما تعمله «شستر» يعمل «شستر» وإذا أحببت أن أصيغ هذا الإعلان في عبارة فصيحة قلت: على قدر ما تعمله مدينة «شستر» تكون عظمة هذه المدينة.

لقد اقتبست هذا الإعلان فأردت أن أقول: على قدر ما تعمله سورية تكون عظمتها، ولكن العمل الذي أعنيه غير العمل الذي يعنيه أهل «شستر»، إني لم أزر هذه المدينة ولكن الظاهر أنها من مدن أميركة الصناعية، فعظمتها وعظمة جاراتها في الصناعة، أما أنا فلا أقول إنّ عظمة سورية في الصناعة، فإنا مهما ننتج فإن إنتاجنا لا يكون شيئاً بالنسبة إلى ما تنتجه المدن الكبيرة، وإنّا مهما يكثر عددنا فإن كثرته لا تكون شيئاً بالنسبة إلى كثرة غيرنا، فإذا كان أهل سورية يبلغ عددهم أربعة ملايين، فإن هذا العدد أقل من نصف سكان بعض المدن الكبيرة في العالم، فلا نفخر بالثروة المادية التي يفخرون بها، ولكننا نفخر بشيء أعظم من كل ثروة ومن كل مادة.

لقد دخلت فرنسة بلادنا وما لبثت أن خرجت منها بعد ربع قرن، ولم تخرج بفضل سلاحنا، ولكن شعراءنا وكتابنا وخطباءنا ورجال سياستنا ظلوا يلهبون القلوب ويغرسون فيها بغض

الإستعمار ربع قرن كامل، حتى إذا أمكنت الفرص قضي على هذا الإستعمار في طرفة عين.

وإذا قسنا قوة إسرائيل إلى قوة فرنسة فإنها لا تكون شيئاً بالنسبة إليها، فكما خرجت فرنسة من بلادنا بقوة إيمان أهل البلاد، فسيأتي يوم تخرج فيه إسرائيل من فلسطين بقوةٍ مثل تلك القوة.

لا يَقَعَنّ في خلد أحد أن المعامل وحدها إنما هي عنوان عظمة الأمة، فإن أميركة لم تبلغ عظمتها بفضل معاملها وحدها، ولكنها بلغت هذه العظمة بفضل الروح التي خلقت هذه المعامل، إنها بلغت هذه العظمة بفضل مغامرة أبنائها الأولين الذين حولوا غاباتها وصحاريها وسهولها إلى مدن تستوفي أعظم ما تحتاج إليه حضارة هذا العصر، فلا يخطرن ببال أحد أنا نستطيع أن نخلق صناعات أو تجارات أو زراعات بروح مادية وحدها، ولكن خلق هذه الأمور المادية يحتاج إلى قوة معنوية في أول الأمر، وهذه القوة المعنوية نجدها في ميراثنا الفكري الذي خلَّفه لنا العرب من قديم الدهر، لقد خلف لنا العرب ميراثاً في الفكر والروح والشعور لا يعدله ميراث المعامل، فإذا قلبنا النظر في هذه الكتب التي تملأ خزائننا في بلادنا وفي أوروبا نفسها فإنا نجد فيها قوة لا تعدلها قوة النفاثات والقنابل الذرية، فإن المثل الأعلى في القديم هو الذي جعل العرب يستولون على الدنيا بمجامعها، إن أدبنا ملآن من الأخلاق القوية التي سالت على أقلام رجال شعرنا وفكرنا

وفلسفتنا، فإن ما أورثنا إياه بعض شعرائنا وأصحاب الفكر فينا من روح البطولة، ومن صوفية طاهرة عاملة، ومن أدب روحاني رفيع، يجعل في ضعفنا قوة تدفع بها جبروت كل جبّار عنيد.

ولكن هذه الكنوز مبعثرة في تضاعيف ميراثنا الفكري، فعلى قدر ما تعمله سورية، مدارسها وجامعها ورجال الفكر فيها، على قدر ما تعمله في الاقتباس عن هذه الكنوز وما تشتمل عليه من بطولات ومغامرات وفلسفات وآداب تكون عظمة سورية.

واشنطن
١٩٥٦/٣/١٧

obeikandl.com

أحمد أمين

ترجع صلتي بالأستاذ الجليل أحمد أمين تغمده الله برحمته إلى الأيام التي أنشأ فيها مجلة الثقافة، أذكر أنه كتب إلي يعلمني بعزمه على إصدار المجلة، ودعاني إلى الكتابة فأجبت دعوته، من ذلك الحين ظهرت لي في مقالات الأستاذ أحمد أمين خصائص عقله، كانت أفكار الأستاذ واضحة لا يكدرها شيء من الغموض، وكان بيانه صريحاً لا يفسده شيء من التعقيد، وقد كان في كتاباته بعيداً عن كل تزويق وتنميق، يعن له فكر من الأفكار واضحاً صريحاً فيختار له نمطاً من البيان واضحاً صريحاً، فكان التناسق بين تفكيره وتعبيره متكاملاً، وهذا فضل لا يظفر به كل كاتب، كان يكره الزخارف، فلا نجد في كتاباته أثراً لخيال جامح أو لصورة غريبة، يلبس فكرته لباساً مناسباً لها.

هذه أول صورة رسخت في ذهني من صور الأستاذ أحمد أمين، ثم كنت أجيء القاهرة من حين إلى آخر فأزوره في لجنة الترجمة والنشر والتأليف، وأول شيء قيد نظري من ظاهر هيئته بساطة هذا الظاهر، كان بسيطاً في لباسه وكلامه وملاقاته، وعلمت بأن وراء هذه البساطة عظمة في العقل وفي الخلق، فكما استحكم التناسق

بين وضوح تفكيره ووضوح تعبيره،ر فكذلك استحكم هذا التناسق بين بساطة عقله وخلقه وبساطة حياته.

ولقد عرفت من هذه الحياة أموراً لا بد من الإشارة إليها، لأنها تدل على نقاوة صاحبها، فقد قص علي الأستاذ في يوم من الأيام في مقهى بديعة في القاهرة أنه ركب الترام متوجهاً نحو داره فوقعت عينه على رجل جالس أمامه فقال له الأستاذ: لماذا لم تحضر حفلة الجامعة أمس، فقال له الرجل: لم أدع إليها، فقال له الأستاذ: كيف لم تدع وأنا أوعزت بكتابة دعوتك، فقال له الرجل: لم تصل إلي، ولما بلغ الأستاذ إلى داره نزل، وفي الغد بادر إلى الجامعة وسأل أمين السر: لماذا لم تدع الأستاذ فلاناً إلى الحفلة، فقال له أمين السر: لقد دعوناه وحضر الحفلة، فذهب الأستاذ أحمد أمين إلى زميله وقال له: أدعيت إلى الحفلة، فقال: نعم، دعيت وحضرت، فقال له: كيف قلت لي أمس في الترام إنك لم تدع، فقال له الأستاذ: لم أصادفك أمس، ولا دار بيني وبينك حديث، ثم فطن إلى الأمر فقال للأستاذ أحمد أمين: أين نزل الرجل الذي صادفته أمس، فقال له: نزل في محط كذا.. فضحك زميله وقال: الآن وضح الأمر إن في هذا المحط داراً يسكنها رجل يشبهني كثيراً وقد التبس عليك الأمر فلما وقعت عينك عليه ظننتني إياه!

هذه حكاية لا يحكيها عن نفسه كل رجل، ولكن الأستاذ أحمد أمين طيب الباطن، ولهذا يروي عن نفسه أمثال هذه الروايات

البسيطة ويضحك لها، وهذا يدل على خلو روحه من كل تدليس وتدجيل، إن هذه الروح تفر من الإنطواء، لأن الروح العظيمة واثقة بحالها فهي تروي أحاديثها ولا تبالي، أما المنطوي على نفسه فإنه يحذر الهزء والسخرية فيتهيب الناس ويكتم في باطنه أمثال هذه الأمور.

وإلى جنب هذا الباطن الطيب عقل جبار عنيد، يحب الأخذ والرد ولا يسهل إخضاعه، فقد كان الأستاذ في صيف من الأصياف في فندق بلودان، وكان في حلقته بعض أساتذته من مصر، فأتينا على ذكر المتنبي. فأخذ الأستاذ أحمد أمين يغض من حرصه على الدنيا وحبه للمال، وأخذت أشرح للأستاذ السبب الذي من أجله كان المتنبي حريصاً على الدنيا، وأبين له أنه لم يك مصاباً بمرض الحرص، وإنما حالته في بيئته كانت تستوجب أن يكون محصناً ببعض المال، وطال الأمر بيننا، وكلما فتحت له باباً من الحجج سدَّه علي بقوة جدله، حتى مللت لأني لست من أصحاب البال الطويل في الجدل، وكان يستمر بعناده حتى إن السنهوري باشا لما كان وزير المعارف أحب أن يقلد الأستاذ أحمد أمين منصباً كبيراً في الوزارة، ولم يكن للأستاذ هوى في هذا المنصب، وقد كنت يومئذ في القاهرة فعرض علي الأمر وسألني عن رأيي فيه فقلت له إني لا أعلم شيئاً من حالات الوزارات في القاهرة، فأرجو أن يرشدك عقلك الراجح إلى وجهة الصلاح في

الأمر، وقال له الأستاذ أحمد زكي وكان معنا: إن السنهوري باشا عنيد فأجابه الأستاذ أحمد أمين: وأنا أعند!

وقد يطول بي الأمر إذا أحببت الاستقصاء في ذكر ما أعرفه عنه، وبعض الناس في مصر يظنون أنه ميال إلى الوقار بحسب ظاهره، ولكني أراه ميالاً إلى الطرب وخفة الروح، فقد كنت في القاهرة في اللجنة الثقافية في جامعة الدول العربية، وكان السنهوري باشا رئيس اللجنة، فلما فرغنا من أعمالنا وعزمنا على الرجوع إلى ديارنا أحب السنهوري باشا أن ينزهنا على النيل في أحد المراكب، فدعا أساتذة من الشام والعراق وفلسطين ولبنان والقاهرة، ودعا جوقة موسيقية، ولما سار بنا المركب وعلا الغناء وأخذ الطرب منا مأخذه، شرع الأستاذ أحمد أمين، نضر الله روحه، يصفق بيديه، ثم دفعته خفة روحه إلى الرقص، فدعا الأستاذ المغربي إلى الرقص ثم رقص وحده وهو يضحك وينبسط والكريم طروب.

هذه الأمور تؤلف جزءاً من خصائص حياة الأستاذ، وهي متصلة ببساطة حياته وتفكيره وبيانه، ولماذا لا أقول إنها متصلة بعظمته، فإن وراء هذا كله عقلاً راجحاً وتفكيراً قوياً ومنطقاً سديداً وخلقاً عظيماً، وإني لا أنسى كلمته الرائعة في دمشق في مهرجان المعري، فقد كان يعتقد أن المهرجان عبارة عن مؤتمر أدبي، فأعد بحثاً لائقاً بالمؤتمر، ولما حضر دمشق وشهد المهرجان لم

يجد شيئاً من خصائص المؤتمر فاضطر إلى تغيير بحثه وهيأ كلمة مناسبة، ولما ألقى هذه الكلمة بلغت من الناس كل مبلغ، حتى إذا فرغ منها ذهب إلى فندق الشرق، فذهبت معه، فجاءه الناس يهنئونه، وأذكر أن أحدهم قال له: إنها كلمة هادئة، فقلت له: ولكن هذا الهدوء لم يأت إلا بعد ثورة، فقال لي الأستاذ: أصبت، إني لم أَنَمْ البارحة، فقد فكرت كثيراً في كلمتي وركزتها في خاطري ولمعتها ونسقتها حتى أصبحت في مثل هذه الحال.

إن من وراء هدوء الأستاذ الظاهر ثورة باطنة، فإذا غض منه أحد فإنه يثور، ولما تعرض له الأستاذ كرد علي في مذكراته، رحمه الله، لم يسكت الأستاذ أحمد أمين، فقد رد عليه ولكنه لم يخرج في رده عن الأدب، فقد غمس قلمه في الحبر ولم يغمسه في السم الذعاف كما فعل غيره.

رحمه الله أوسع رحمة، فقد كان عظيماً في حياته وعقله وخلقه، وهذه العظمة إنما هي أضخم ميراث خلَّفه.

النقاد

١٩٥٤/٦/١٣

الكوميديا البشرية

فتحت خزانة كتبي بعد رجوعي من بلودان، أي بعد انتهاء رحلة الصيف وابتداء رحلة الشتاء، فوقع نظري على كتاب اسمه: (سان سيمون) أو فرنسة في عهد لويس الرابع عشر، مؤلف الكتاب (دوميك) من الأكاديمية الفرنسية، ألفه ثلاث وأربعين سنة.

لا أدري ما الذي دفعني إلى إخراج هذا الكتاب من المكان الذي كان مطمئناً فيه، لا تزعجه يد ولا تقلقه عين، وقد يكون الدافع إلى ذلك أُلفَتي للمؤلف في أيام الدراسة وشهرة (سان سيمون) الذي لا يجاريه مجار في فن الصورة.

ما كدت أشرع في قراءة المحاضرة الأولى من هذا الكتاب حتى شعرت بشيء غلب على إرادتي، فما استطعت طرحه من يدي، فكنت أقرأ منه أكثر ما يمكنني أن أقرأ ثم كنت أريح البصر قليلاً.

(سان سيمون) من كتَّاب القرن السابع عشر، اشتهر بكتابه الذي سماه: المذكرات، فالكتاب اسمه: مذكرات (سان سيمون) صور فيه لويس الرابع عشر، ومن كانوا يعيشون في قصره (فرساي)، ومن كانوا يختلفون إلى هذا القصر من رجال ونساء.

لا شك في أن هذه المذكرات لها المقام الأول في الأدب

الفرنسي، ولكن قراءتها وحدها لا تغني عن الاستعانة بتحليل (دوميك) لصورها، فإن محاضرات (دوميك) ألقت عليها ضياء وضح عبقرية صاحبها.

لقد قرأت هذا الكتاب في خلال أربعة أيام، حتى كدت أعيش في قصر (فرساي) في القرن السابع عشر، كدت أرى بعيني ما يجري فيه وأسمع بأذني الأحاديث، حتى كأني واحد من جماعة القصر.

ماذا بقي في الذهن من قراءة هذا الكتاب؟

لقد بقيت أمور كثيرة، لأن من عادتي التمهل في القراءة حتى تمتزج محاسن ما أقرأ بكل جزء من أجزاء نفسي، إلا أني لا أجد سبيلاً إلى التنويه بكل الآثار التي بقيت في الذهن، وإنما أنتخب منها أثراً واحداً يتصل بهذه (الكوميديا) البشرية التي يشهد التاريخ تمثيلها في كل عصر من عصوره.

لا تخلو المذكرات عادة من مادة للتاريخ، ومذكرات (سان سيمون) مثل غيرها، فيها أمور تتصل بالتاريخ، وقد كان رجال التاريخ، على نحو ما أشار إليه (دوميك) في بعض محاضراته، يدونون في كتبهم الحوادث الكبيرة أشباه الولاية والعزل وتغيير نظام الدولة والفتوح والسياسة.

إلا أن هذا الأسلوب من التاريخ في عصرنا هذا يكادون يسخرون منه أنه لم يُبْنَ على أصول العلم، ولذلك عدلوا عنه ولجأوا إلى تدوين الحوادث الصغيرة، فالمؤرخ يتتبع القاضي في

محكمته، والكاهن في مذبحه، ويراقب رب البيت بين ولده وأهله، المؤرخ يدوِّن العادات والأزياء.

فالذي تبيّن (لدوميك) بعد هذه الحوادث الصغيرة في التاريخ أن الأمور التي نظنّها جديدة في حياتنا، ونعجب منها كل العجب، إنما هي قديمة قدم العالم، فقد جاء قبلنا أناس ألموا مثل آلامنا، وحزنوا مثل أحزاننا، ونحن نظن أننا وحدنا ضحايا الآلام والأحزان، جاء أناس قبلنا غلطوا ونحن نغلط مثل غلطهم، فكل شيء في هذه الحياة مكرر، معاد، فالحياة إنما هي رواية مضحكة، إنها نوع من (الكوميديا) فنحن على المسرح نغير الزخرف قليلاً، ونبدل الثياب قليلاً، ولكن الرواية في هذا التغيير والتبديل واحدة، لأن الأهواء واحدة لا تتغير ولا تتبدل على مرور الزمن.

على هذا النحو نرى أننا بعد كل ما مر بنا في السنين القريبة أو البعيدة لا نزال كأننا في محلنا لم نتلحلح، فالرواية المضحكة التي مثلت في تاريخنا القريب أو البعيد هي نفسها التي ستمثل في الحاضر والمستقبل، وإنما تتغير فيها الزخارف والستائر والثياب.

الدنيا ١٩٦٣

نصف ساعة مع الكاتب الكبير شفيق بك جبري

اختلاف الثقافة العربية – الثقافة المصرية الحاضرة

– الشك في الأدب –

أدب مصري! – الأدب في سوريا ولبنان – الثقافة العربية وتوحيدها

كان الأستاذ عمر أبو النصر قد تحدث إلى الكاتب الكبير شفيق بك جبري في الثقافة العربية الحاضرة، وأثرها في الأوساط المصرية والسورية واللبنانية، ومصائرها فيها جميعاً في ما ستقطعه من شقة في الأيام والأعوام المقبلة، فكان من ذلك هذه الصفحة الأدبية الطريفة، التي تلم برأي أستاذ الأدب العربي في الجامعة السورية، والتي ننشرها في المعرض مع الشكر.

سألتني عن رأيي في الثقافة العربية، وفي أثرها في الآتي، وفي أدب العرب في عصرنا في بلاد العرب كلها، وفي أكبر رجال الأدب وأبقاهم أثراً على الأيام، وفي مصير الثقافة العربية، وفي توحيد مذاهبها في بواقي العصور.

إن سؤالاً مثل هذا لا يمكن أن يكون الجواب عنه وجيزاً وأنت بذلك عليم، وإنّ جواباً مطولاً لا تتحمله صحيفة مثل المعرض،

وهي من أوائل صحف سورية ولبنان التي أخذت تصب على قوالب صحف أوروبة من حيث الجودة والإتقان.

نعم إن سؤالاً مثل سؤالك يستلزم الإمعان في البحث والتوسع في الإطلاع، وهذا لا يتيسر لي في مثل هذه الساعات، ولئن فاتني الجواب عن كل شيء. سألت عنه على سبيل الضبط والتفصيل، فلا يفوتني الجواب على قدر ما يخطر بالبال في الساعة التي أكتب إليك فيها كتابي هذا دون شيء من التطويل.

اختلاف الثقافة العربية:

الثقافة العربية يا سيدي مختلفة المذاهب في كل قطر من أقطار العرب، فلا يمكن إبداء الرأي عامّاً، لأن التخصيص يستوجب الكثير من التدقيق وهذا لا أجد السبيل إليه الآن.

الثقافة العربية المصرية:

وإذا هجس في الصدر الكلام على ثقافة العرب في هذا العصر فأول ما يخطر على البال إنما هو الكلام على ثقافة مصر، فإنها أم الثقافات العربية في أيامنا هذه، عملت في أبناء مصر في هذه السنين الأخيرة عوامل شتى: سياسية وإجتماعية وأدبية، والذي نبحث عنه إنما هو العامل الأدبي، فقد ظهرت آثار هذا العامل على قرائح أدباء مصر وأساتذتها، فشرعوا يبنون في مباحثهم على أصول حديثة مناسبة لأوضاع هذا العصر، فإنهم إذا أمضوا مثلاً شيئا من القول في شاعر من الشعراء تغلغلوا في بواطن روحه وعواطفه

وأفكاره وعبقريته وفنه، وهذا لم يهتد إليه أدباء العرب في قديم الدهر، وقد اقتبس أدباء مصر أسلوبهم الحديث في التمحيص عن الغرب، فكلهم أو معظمهم يعرفون طائفة من لغات أوروبة كالفرنسية أو الإنكليزية، وهذه المعرفة هي التي كشفت لهم أفقاً حديثاً في الأدب.

الشك في الأدب:

لا شك أنهم ذهبوا بالأدب مذهباً لم يألفه الأدباء من قبل، وخلعوا عليه حلّة كان منها عاطلاً، ومع هذا كله فإن أدب مصر لا يخلو من شيء من تقليد الإفرنجة وهذا التقليد لا يخلو من أشياء من المحذورات، قد يكون في تقليدهم وجه من النفع، منه إطلاق الفكر مثلاً، ولكن طائفة منهم قد بالغوا في هذا الإطلاق حتى ذهبوا مذاهب بعيدة، فشكوا في شعراء من العرب كما شك الإفرنجة في هوميروس، إنهم خرجوا بنا من يقين إلى شك، ولم يخرجوا بنا من شك إلى يقين، والتوسع في مثل هذه النزعة يؤدي إلى خواتيم غير محمودة في ماضي أدبنا.

أدب مصري:

إذا أمعنا في أدب مصر تبين لنا أن هذا الأدب لا يزال في عزلة عن بيئة مصر نفسها، فليس له غاية خاصة يرمي إليها أدباء مصر، كتنبيه الشعور على ناحية من النواحي، أو كتصوير وضع من أوضاع مصر الخلقية أو الاجتماعية أو ما شابه ذلك، والأدب إذا

كان في عزلة عن البيئة كان ضعيف الآثار، ومع هذا فإنا نشاهد في مصر نزعة إلى الاستقلال الأدبي، أي نزعة إلى إلباس أدب مصر ثوباً مصرياً خالصاً، وهذا لا نعترض عليه، فإن من خصائص الأدب أن يكون ابن بيئته، ولكن طائفة من أصحاب هذه النزعة قد جاوزوا الحد في تمصير أدبهم، فكأننا معاشر العرب في مصر والشام والعراق والجزيرة وتونس والجزائر ومراكش، كأننا لا نشترك في لغة واحدة من سنين طويلة، كأننا لا نشترك في عواطفنا وأفكارنا وفي جروحنا وآلامنا، والشعوب العربية في هذا الدهر مجروحة في آمالها، فليس من الإنصاف في شيء، أن تزيد مصر في هذه الجروح وهي أم بلاد العرب، وإذا الأم لم تعطف على بنيها فمن الذي يعطف على هؤلاء البنين؟ وإذا اللغة لم تكن من أقوى الأواصر بين الشعوب التي تتكلم بها فما هي الأواصر بين هؤلاء الشعوب، وعلى الخصوص إذا كانوا مبعثرين في مشارق الأرض ومغاربها لا يجمعهم نظام واحد ولا تظللهم سماء واحدة؟.

الأدب في سوريا ولبنان:

أما سورية ولبنان فليس فيها أدب خاص تستنبط منه صور مجتمعاتها وإنما نحن لا نزال نقلد تقليداً، قد أثرت فينا مصر بعض التأثير، فإن كتبها الأدبية مستفيضة في هذه الديار، وصحفها شائعة تزاحم صحفنا، وإن طائفة من أصحاب القلم فينا لا يزالون ينسحبون على أذيال أصحاب القلم في مصر، نعم ليس لنا أدب خاص، فلا تجد في بلادنا كتّاباً أو شعراء ينبهون الناس على ناحية

من نواحي أوضاعنا الخلقية أو الاجتماعية أو القومية أو الوطنية، وإنما كتابنا وشعراؤنا يفحصون عن أمور قلما يكون لها ارتباط بأحوالنا، فأدبنا لا يزال في عزلة تامة عن بيئتنا، والشعراء الذين يجارون الأمة في رغائبها قليل عددهم، فالأدب ينبغي له أن يكون صورة أحوالنا الاجتماعية والسياسية والخلقية، على أننا نجد طائفة قليلة من شعرائنا ينهجون في شعرهم منهجاً خاصاً تظهر عليه آثار البيئة، فهم يغتنمون الفرصة في حادث من الحوادث، فيثيرون القومية أو يهيجون الوطنية، وهذا من مقتضيات بيئتنا، ولكن عددهم قليل جداً، فالأدب لا يزال فوضى في بلادنا ليس له غاية خاصة ولا منهج ولا صبغة خاصة ولا ينتظم أمره إلا إذا انتظمت أمور التدريس الأدبي، واهتدى المدرسون إلى تدريب طلاب على أساليب رشيدة في البحث. إن أدبنا لا يزال في عزلة تامة عن الأنواع الأدبية الحديثة التي فعلت فعلتها في الأمم، من جملة هذه الأنواع الأسلوب الروائي أو الأسلوب القصصي مثلاً، والروايات المنتشرة من سنين في بلادنا مجردة من الروح الروائي، على أن الأدب أخذ يخرج من عزلته، وشرع بعض الأدباء يعمدون إلى الروايات على الأسلوب الحديث، وفي مقدمة هذه الروايات سيد قريش للأستاذ معروف الأرناؤط، لا بل تكاد تكون هذه الرواية فريدة في بابها لما فيها من إثارة الذكريات القومية على أسلوب نسيج وحده.

الثقافة العربية وتوحيدها:

هذا ما عنَّ لي من الآراء في الثقافة الأدبية في مصر والشام،

أذكره لك على سبيل الإيجاز دون شئ من التوسع في البحث، على أن المجال واسع، ولكن الوقت لا يتسع للإفاضة في الحديث، أما توحيد الثقافات في بلاد العرب فهذا أمر صعب؛ لأن لكل قطر من هذه الأقطار صيغة سياسية خاصة، وهذه الأقطار مصدوعة الشمل لا يجمعها نظام واحد، وليس بين المنتديات الأدبية في بلاد العرب صلة ما، فقد تقرُّ الشام مثلاً لفظة لا تُقِرُّها مصر، وقد أعود إلى الحديث في فرصة ثانية. فجوابي عن سؤالك مختصر جداً فأرجوا المعذرة سيدي.

المعرض الأسبوعي
١٩٣٠/٣/٢٠

ماذا كان يمكن أن يحدث

يحل «أندره موروا» في الأدب الفرنسي المحل الأول، لهذا الكاتب العظيم كتاب اسمه: رسائل إلى المجهولة، عُني فيه بكل النساء اللواتي يهمهن أمر الحياة، في هذه الرسائل جواب عن كل سؤال يمكن أن تسأله المرأة في أي باب من الأبواب، في الحب والفرح والارتباك، في الزواج، في فتنتها للرجال، في كمال خلقها وعقلها، ويكاد موروا يحيط في هذه الرسائل اللطيفة الخفيفة بأسرار المرأة، بدخائل روحها.

من هذه الرسائل رسالة عنوانها: أنف كليوباترة. والذين درسوا الأدب الفرنسي يذكرون قول «باسكال» المشهور: ولو كان أنف «كيلوباترة» أقصر لتغير وجه الأرض كلها، والمعلوم أن كليوباترة بلغت من الجمال كل مبلغ، حتى استولت بجمالها على قيصر وأنطنيوس، فلو لم تبلغ ما بلغته من الحسن لما وقع قيصر وأنطنيوس في حبها، فإن وقوعهما في هذا الحب غيَّر تاريخ رومة.

شرح «موروا» قول «باسكال» على أسلوبه، في رأيه أن حوادث صغيرة في حياتنا الخاصة وفي تاريخنا، أو مفاجأة أمور مختلفة تحدث في وقت واحد، قد تؤدي إلى أفظع الفظائع بحيث يذهب وهمنا إلى

اختلال أمور القدر وتفككها، ثم ضرب أمثالاً لذلك فقاس على قول «باسكال» بعض الأقوال، فالذين تتبعوا مثلاً حوادث فرنسة في الثلاثين السنة الأخيرة لم ينسوا فضائح «ستافسكي» يقول «موروا»: لو أن «آرليت ستافسكي» لم تحب الماس واللؤلؤ هذا الحب لتغير تاريخ الجمهورية الثالثة، وتوضيح هذا القول أن هذه السيدة لولا ميلها إلى الجواهر وشغفها بها لما أقدم «ستافسكي» على ما أقدم عليه من الاختلاس، فلولا اختلاسه لما فضح أمر الجمهورية الثالثة.

ومثل آخر من هذا القبيل قول «موروا»: لو أن جند «نابليون» الذين جاءُوه بمدفع في الوقت المناسب أبطأوا عشر دقائق في أثناء الشرب لمحوا من كتب فرنسة اسم «أوسترليتز» فالذين درسوا تاريخ فرنسة يعلمون أن (وقعة) «أوسترليتز» التي قاتل فيها «نابليون» النمساوين والروس رفعت من اسمه على وجه الدهر، فلو تأخر جنده عشر دقائق لضاع مجده.

وقد ضرب «موروا» في رسالته أمثالاً ثانية من هذا النمط، إلا أنه لا يؤمن الإيمان المطلق بقول «باسكال» فلا شك في أن أموراً صغيرة تغير في كل لحظة مجرى حوادثنا الطبيعي، غير أن هذا المجرى لم يتغير في رأيه إلا بفضل أمور كثيرة قد تسلسلت وتلاحمت، فإن الأمم لا تستطيع أن تتفلت من حكم القضاء والقدر، وهذه العبارة الأخيرة هي جوهر اعتقاد «موروا» فلو لم يظهر «نابليون» لظهر غيره لأن في كلّ عصر من العصور أبطالاً

مهيئين للظهور إذا مست الحاجة إليهم، وإذا لم تمس هذه الحاجة لَبَدَ هؤلاء الأبطال.

وعلى هذا لو كان أنف «كليوباترة» أقصر لما استطاعت روما أن تنفلت مما أصابها، إن هذا الأنف لم يؤثر في شيء من عظمة رومة في فاتحة الأمر، ثم من انحطاطها في خاتمة تاريخها.

معنى هذا كله أن ما قدر وقوعه من الأمور في حياة الأشخاص وتاريخ البلاد لا مفر من وقوعه، مَنْ منا لم يعانق في حياته أزمة عاطفية نغصت عليه كل شيءٍ في هذه الحياة حتى طار نومه وقل أكله وشربه، وأسودت الدنيا في نظره، فنحن نقول في غمرة هذه الأزمة: لعنة الله على الشيطان لو لم نتعرف إلى فلانة في السهرة لما وقعنا في حبها، ولما أصابنا ما أصابنا من تعب الفكر، إلاأنا لو لم نتعرف إلى فلانة لتعرفنا إلى غيرها، لأنا في ذلك الوقت مستعدون للوقوع في جهنم الحب، فأي امرأة نصادفها في خلال هذا الاستعداد فتعجبنا قد تجرنا إلى المصيبة

وعلى ما به سواء أطال أنف «كليوباترة» أم قصر لا يغير طول الأنف أو قصره شيئاً من وجه الأرض !

مجلة الدنيا

١٩٦٢/١٢/٢١

مصرع العربية

غادرت في هذا الظهر مدينة (سان فرنسيسكو) الفتانة إلى ضاحية قريبة اسمها: بركلي فيها جامعة سأزورها في الصباح، وقد بقيت في ذهني من (سان فرنسيسكو) آثار خالدة لا أنساها على الدهر، ولكني لن أتكلم في هذا المقال الوجيز على هذه الآثار، وإنما الأثر الوحيد الذي لا أحب أن أمر به دون شيء من التعليق إنما هو مصرع العربية في أميركة.

لمّا ظهر الإسلام وحمل إلى الدنيا كتابه ولغته ثبت هذه اللغة في أكثر الآفاق التي انبسط عليها، وصارع اللغات التي مر عليها حتى غلب على معظمها، فقد كانت لغة دين ولغة دولة، فلم يجد الداخلون في دين الله مندوحة لهم عن نسيان لغتهم وحفظ اللغة الجديدة التي جاءتهم، ولقد جرى مثل هذا الأمر في أميركة، فقد فتح الأميركان هذه البلاد العظيمة التي لا يكاد الإنسان يتصور عظمة جبالها وسهولها وبحيراتها، وغاباتها وصحراواتها، ثم جاءتهم عناصر شتى من أكثر الأمم، جاءتهم جماعات من الألمان والإيطاليين واليونانيين والفرنسيين والسويديين والدانماركيين والأرمن والعرب والصينيين واليابانيين وغيرهم: جاءتهم هذه

العناصر الجديدة بلغاتهم، ولكن لم يمر عليها بطن أو بطنان حتى نسيت لغاتها وتعلمت الإنكليزية، ولقد زرت في قرية من القرى فيها جامعة عظيمة وهي قرية (أفاربر) طالباً أبوه فرنسي، وسهرت في داره ساعتين وأخذت أكلمه بالفرنسية فسر كثيراً وقال لي: إني أغتنم فرصة زيارتك لأُمرّن لساني على لغتي الأولى، إلا أن هذا الطالب لم يمرن لسانه على لغته إلاّ لأن أباه وهو طبيب مشهور يحمله على هذا التمرين، والطالب متزوج وامرأته أميركانية لا تعرف الفرنسية، ولا شك في أن أبناءه إذا رزقه الله أبناء سيجهلون الفرنسية غير أن هذا الطالب على كل حال لا يجهل الفرنسية الجهل كله وإنما هو غير قوي فيها.

أما الذين يجهلون لغتهم الجهل كله إنما هم من أبناء العرب، فقد زرت في سان (فرنسيسكو) أسرة من لبنان، كان رب هذه الأسرة يتكلم بالعربية حتى توفاه الله وبقيت امرأته تتكلم بالعربية ولكنها عربية غربية الشكل، إنها لم تتقن الإنكليزية الإتقان كله ولم تنس لغتها النسيان كله فإذا تكلمت خلطت العربية بالإنكليزية واشتقت من الكلمات الإنكليزية كلمات تكاد تشبه لغة مالطة، فكلمة ساق في الإنكليزية معناها (TO DRIVE) فالسيدة لا تعرف السوق بالعربية، ولهذا تقول في حديثها: درف الكار أي ساق السيارة، وكذلك كلمة أنهى معناها (TO FINSH)،فالسيدة تقول في أثناء كلامها: لما فنش ابنها السْكُول، أي لما أنهى التحصيل،

والسكول معناها: المدرسة، أمّا بناتها اللواتي انفصلن عنها وتزوجن فهن لا يعرفن كلمة عربية، لأن أزواجهن أميركان، وكذلك أبناؤهن فهم لا ينطقون بالعربية

والأمر نفسه شهدته في مدينة اسمها (إلبازو)، فقد دعاني إلى داره رجل من الحصن على مقربة من تل كلخ، وهو كريم الخلق طيب النفس، حافظ هذا الفاضل على لغته، فهو يعرفها معرفة جيدة، وحافظت امرأته على لغتها وهي من قرى حمص، أما ولداه فلا يعرفان حرفاً من العربية، ولكن بناته وهن في سن العشرين ضعيفات جداً في العربية، ولذلك لا يردن أن يتكلمن بها.

وأشباه هذه الأمور كثيرة، فالعربية في أكثر دور العرب في أميركة قد ماتت أو كادت، لأن اللغة الإنكليزية، غلبت على كل اللغات الجديدة، والدّين، على قوته، لم يستطع أن يقف في وجه الإنكليزية، فقد حضرت صلاة في كنيسة أورثوذكسية في مدينة (سان فرنسيسكو) فكانت الصلوات، نصفها بالعربية الضعيفة، ونصفها بالإنكليزية، ولا شك في أن الإنكليزية ستحل على الأيام محل العربية حتى في الصلوات.

واللغة الوحيدة التي تنازع الآن اللغة الإنكليزية إنما هي الإسبانية في الولايات الغربية من المكسيك، ولا ريب في أن الإسبانية ستضعف أيضاً على الأيام، وقد ظهر من هذا اليوم وإذا ضعفت العربية في دُور أبناء العرب في أميركة، فقد قويت بعض

الشيء في قليل من الجامعات والمدارس، فقد دخلت مدرسة عسكرية في مدينة مونتري فسمعت أربعة أساتذة عراقيين يعلمون بعض الجند والقواد التكلم بالعربية.

الناس مقيدون بمصالحهم، فكما إن الإسلام في القديم قضى على كثير من اللغات لدخول أصحابها في دين جديد ودولة جديدة، فكذلك الإنكليزية في أميركة قضت على غيرها من اللغات، لأن أصحاب هذه اللغات دخلوا بلاداً جديدة فوجدوا فيها رزقاً واسعاً وعيشة راضية، فنسوا لغاتهم وتعلموا لغة الذين فتحوا لهم باب هذا الرزق ومهدوا لهم سبيل هذه العيشة.

«بركلي» - ولاية كاليفورنيا
١٩٥٣/١١/٣

الجاحظ والعم (أبو قاسم)!

يسر «الدنيا» شديد السرور أن يعطر الأستاذ شفيق جبري صفحاتها بنفثاته الروائع..وشاعر الشام وأديبها الكبير غني عن التعريف وغني عن التقريظ ...وسيلتقي قراء الدنيا مع أديبنا وشاعرنا الكبير باستمرار وفي فترات جد متقاربات بعد اليوم.

سألني سائل، قال: كيف تقضي أوقاتك في بلودان، وقد هجم الشتاء، وليس في القرية أنيس يؤنسك أو جليس يجالسك؟ شرحت للسائل كيف أقضي أوقاتي، وأهم ما جاء في هذا الشرح أمران: نزهة الصباح وجلسة المساء، أما النزهة على سفوح الجبال بين البساتين في أيام الصحو، ففيها متعة العين ولذة الأذن ورياضة الجسم، وأما جلسة المساء ففيها تسلية الذهن وغبطة العقل.

إني أتخطى الكلام على النزهة وأعمد للكلام على جلسة المساء إذا قربت صلاة المغرب أذهب إلى دار أبو قاسم وهو زوج المرأة التي تتولى تدبير بيتي، فأقضي معه أكثر ما يمكنني قضاءه من الوقت، وأبو قاسم هذا رجل جاوز الستين وامرأته إن لم تعادله في السن فقد أوشكت أن تلحق به، وهو رجل من الصالحين، لم أر في حياتي أصفى سريرة منه وأبسط فكرا، مؤمن بالله الإيمان كله،

مؤمن بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر، مؤمن بقضاء الله، خيره وشره، يصلي الصلوات الخمس في أوقاتها، يحفظ بعض آيات من القرآن ويلحن في تلاوة بعضها، إذا فرغ من صلاة المغرب رفع يديه إلى السماء ودعا في قلبه ولا أعلم شيئاً من دعائه، وإنما أرى الشفة تتحرك، فإذا مدوا السفرة أكل ما شاء الله أن يأكل وهو هادئ في أكله وشربه، فإذا قام عن الطعام رفع يديه إلى السماء ودعا في قلبه.

بعد هذا كله تتساقط الأحاديث، فأسأله عن الجنة والنار وأسأله: هل أنت من أهل الجنة، فيقول: الله أعلم ـ قلت له: إنك تصلي وتصوم ولا تؤذي أحداً وتؤمن بالله أشد الإيمان أفلست تعتقد أنك من أهل الجنة؟ قال: الله أعلم، ثم بعد هذا كله أسأله عن الجن، فيقص علي أحسن القصص، كان أبو قاسم في صباه ينقل الثلج على الحمار من جبال حلبون إلى بلودان والزبداني، كان ينقله في الليل، قال لي كنت مرة في سفح جبل حلبون أسوق حماري وعليه الثلج، فسمعت هاتفاً يهتف بلهجة أهل حلبون: ماذا تحمل؟ قلت: أحمل الثلج قال: أثلج الله أصابعك! وتوارى عني، قلت له: من هو هذا، قال: هذا مارد وليس من الجن، قلت له: ألم تخف؟ قال: تهيأت له بعصاي ولكنه هرب مني.

ثم قص علي من أخبار الجن مع أبيه قال: كان أبي سواق غنم، كان في بعض الأيام يسوق غنمه في الخان، وهو مرج أخضر على

أبواب الزبداني، كان يركب كديشة وأمامه بين يديه خروف صغير، فسمع هاتفاً يهتف: يا أنازع وهو اسم الخروف، أين أنت؟ قال أنازع: أنا راكب مع عمي، قال أبو قاسم: لما سمع أبي صوت الهاتف وصوت أنازع ألقى الخروف من بين يديه وهرب خوفاً من الجن!

ليست المتعة في هذه الأحاديث وحدها ولكن المتعة في طرز روايتها، عمنا أبو قاسم إذا رواها لم يروها بلسانه وحده ولكنه يرويها بكل جسمه، بيديه ورجليه ، وبوجهه فإن تقاطيع وجهه كلها تشترك في رواية أحاديث الجن، فتلقي عليها رونقاً وتدل على فرط إيمانه بها.

هذا هو نمط من الأحاديث التي أسمعها كل يوم، يقصها علي أبو قاسم، هذه هي الأحاديث التي أسلي الذهن بها في المساء كما أسلي الجسم بالطبيعة في الصباح، فإذا انقضت السهرة، وصلى أبو قاسم صلاة المغرب والعشاء وتعشى ودعا ربه وقص علي قصص الجن انصرفت إلى داري للنوم، وقبل أن أنام أفتح بعض كتب على مقربة مني في الشباك، أصحابها: الجاحظ وأناتول فرانس وأندره تارديو، فأقرأ منها ما يتيسر، ثم أقابل بين هذا العالم الذي تخلقه لي كتب الجاحظ وفرانس وتارديو، وبين العالم الذي يخلقه لي أبو قاسم، أقابل بين بيان الجاحظ وأدب فرانس وسياسة تارديو وبين أحاديث الجن التي يرويها لي العم أبو قاسم، أقابل بين هذين

العالمين وأقول في نفسي: سبحان الله إن الذي خلق أبا عثمان الجاحظ خلق عمّنا أبا قاسم، وإن الذي رزق الجاحظ ما رزقه من نضج العقل وقوة الفكر وسحرالبيان وسعة الآفاق، وخفة الروح، هو الذي رزق أبا قاسم هذه البساطة في التفكير حتى انقطعت كل صلة له بهذا العالم الذي نعيش فيه، عالم الذرة والصواريخ وكشف السماء، واشتدت هذه الصلة بالجن وأخبارهم.

لا أستغرب شيئاً من هذا التباين، لا بل أرى من الحكمة أن يكون في الدنيا عقول قريبة من عقل الجاحظ ونظراته، وعقول قريبة من عقل أبو القاسم وإخوانه، وأعتقد، سواء أشاركني الناس في هذا الاعتقاد أم لم يشاركوني أنّ الدنيا لولا هذا التباين في العقول لما كان لها بهجة إنا لا نشعر ببهجتها إلا في هذا التباين، فلو كان الناس كلهم من طبقة الجاحظ وفرانس وغيرهما لما كان للدنيا رونق، ولو كان الناس كلهم من طينة أبو قاسم لما كان لها لذة، فالناس لا يعيشون إلا بالتناقض في العقول، تناقض العقول الراجحة عقول رجال العبقرية، والعقول البسيطة، عقول إخوان عمنا (أبو قاسم)!

الدنيا ١٩٦٢/١٢/٧

البناء قبل الهدم

رحلت إلى الولايات المتحدة سنة ١٩٥٣ ودونت خواطر الرحلة في كتاب سميته: أرض السحر، وقد خطر على بالي في هذه الأيام حديث جرى بيني وبين سيدة في سان فرنسيسكو أصلها فرنسي وزوجها أميركي، دعتني هذه السيدة إلى العشاء في دارها، والظاهر عليها أثر النعمة، إنها تقيم بدار ذات ثلاث طبقات، وفيها مصعد، وزوجها من أرباب العمل.

لقد تساقطنا بعد العشاء أحاديث شتى في موضوعات مختلفة، قالت لي هذه السيدة: قررت أميركه، أن تُخرج فرنسة من الجزائر، إلا أنها تدرس حالتها إذا جلت عن الجزائر. ماذا تحتاج إليه بعد الجلاء، فهي لا تريد أن تخرج فرنسة من الجزائر قبل أن تستوثق الولايات المتحدة من أن ما تنعم به لا تحرمه في فرنسة.

هذا حديث في جملة الأحاديث التي دارت بيني وبين السيدة التي أشرت إليها، والحديث يشتمل على وجهين: الوجه الأول جلاء فرنسة عن الجزائر. والوجه الثاني تهيئة ما تحتاج إليه بعد الجلاء، أما الوجه الأول فلا شأن لي به في هذا المقال سواء أكان صحيحاً أم كان غير صحيح، فإني أترك لغيري تصحيحه وإثباته،

وإنما همي من هذا الحديث الوجه الثاني، وقد أحب أن أعبر عنه بعبارة ثانية وهي: التفكير في البناء قبل الإقدام على الهدم، فليس أصل الأمر أن نهدم ما نعتقد أنه فاسد من الأمور، وأن نقتصر على الهدم، وإنما أصل الأمر أن نفكر في البناء قبل التفكير في الهدم، وأن نضع لهذا البناء ما يلزمه من القواعد حتى لا تكون أمورنا فوضى بعد الهدم.

تعيش بلاد العرب في هذه الأيام في عصر نستطيع أن نسميه: عصر الانقلابات أو الثورات، في مصر ثورة، وفي الجزائر ثورة وفي اليمن ثورة، وفي العراق ثورة، وفي سورية ثورة، وفي بلاد ثانية من بلاد العرب ثورات لا تزال في حيز الفكر، أجل إنّ الثورات تأججت نيرانها في أكثر بلاد العرب، وقد تختلف شدتها أو خفتها بحسب اختلاف الطبائع والأمزجة، والمهم في هذا كله أن أصحاب هذه الثورات ذكروا في فاتحة ثوراتهم أنهم يهدمون الفاسد من أمور مجتمعهم، وطائفة منهم خصصوا بعد أن عمموا، لقد حصروا آفاق الفساد في الاجتماع والاقتصاد والسياسة وغير ذلك، وما عليهم لو قالوا: في اللغة أيضاً، فإني أمر في بعض الجرائد بعد لهيب هذه الثورات بعبارات وتراكيب لا أفهم منها شيئاً، وأسأل عنها بعض أهل الفهم، وإذا هم مثلي في الجهل بهذه العبارات وهذه التراكيب، ولست أبالي بذلك، فقد أقول في نفسي: إنها نتائج الثورة وإنها من منطق الثورة!

لا بأس بكل ما ذكرت، فلا بأس بأن نهدم ما نراه فاسداً من

أوضاعنا في الاجتماع والاقتصاد والسياسة، حتى في اللغة والأدب إذا شاءوا، لا بأس بأن ندعو إلى الاشتراكية وإنما البأس كل البأس بإهمالنا التفكير في البناء قبل العزم على الهدم.

لست من رجال الاقتصاد حتى أخوض في جملة الاشتراكية وتفاصيلها، وإن كنت أرى أن كل بلد من بلاد العالم يفسر الاشتراكية بحسب بيئته، فالاشتراكية مثلاً في بلد كذا لا تشبه الاشتراكية في بلد كذا... هذا موضوع لا شأن لي به، وإنما الذي أفهمه ويفهمه غيري على نحو ما سمعته في أكثر المجالس أن غاية الثورات ينبغي أن تكون في إصلاح أوضاع المجتمع، حتى تعيش الطبقات كلها في أمن ودعة، والمؤسف أن كل واحد من أصحاب الثورات يفسر الإصلاح على مقدار هواه، فبعضهم يرون مثلاً أن الإصلاح إنما هو في تجريد أصحاب المال من مالهم، حتى تكون طبقات الشعب على مستوى واحد، فلا يرتفع رأس ولا ينبس فم.

وإذا كان لا يجوز أن تعيش طبقات على خط عمودي من الرفاهة، وأن تكون طبقات ثانية على خط أفقي من الفقر، أو بعبارة أوضح، إذا كان لا يجوز أن تموت بعض الطبقات من التخمة، وأن تموت بعضها من الجوع، فلا يجوز في حال من الأحوال أن تستوي الطبقات كلها في الفقر.. أصل الأمر في الثورات أن تعيش طبقات الشعب في مستويات متقاربة من نضارة العيش، فإذا كان ليس من الإنصاف في شيء أن يموت العامل من الجوع فليس من الإنصاف في شيء أن نفقر صاحب العمل، غاية

الثـورات أن نغـني الفقـراء لا أن نفقـر الأغنيـاء! غايـة الثـورات أن تكـون مجـردة مـن روح كـل حقـد وكـل حسـد حتـى نـرى الطبقـات كلها في مهـب من الإخـاء، ثـم نـرى هـذا الإخـاء كالبنيـان المرصـوص يشـد بعضـه بعضـاً، أمـا إذا أنشـأنا العـداوة بـين الطبقـات فكأنّـا نهـدم مجتمعنـا بأيدينـا دون أن نبـني فيـه شـيئاً.

ومثـل هـذا الإصـلاح لا نصـل إليـه إلا إذا فكرنـا في البنـاء قبـل تفكيرنـا في الهـدم، فـإذا أهملنـا هـذا الأمـر كـان عملنـا ارتجـالاً، وكـل عمـل لا يـأتي بعـد طـول فكـرة، وبعـد طـول تـأمل إنمـا هـو فسـاد بعضـه فـوق بعـض.

قديمـاً كـان يقـول الجـاحظ: وكـل شـيء للعـرب إنمـا هـو بديهـة وارتجـال، ولكنـه لمـا قـال هـذا القـول أراد بـه غايـة المـدح، فقـد قـابل بـين خطبـاء الفـرس وخطبـاء العـرب فوجـد أن كـلام الفـرس إنمـا هـو ابـن الفكـرة والدراسـة، وأن كـلام العـرب إنمـا هـو ابـن الإلهـام، فـإذا نقلنـا قـول الجـاحظ مـن ميـدان الخطابـة إلى ميـدان العمـل وأحببنـا أن نطبقـه في عصرنـا فإنـا نـراه غايـة في الـذم، إذا قلنـا في عصرنـا : وكـل شـيء للعـرب إنمـا هـو بديهـة وارتجـال فإنـا نـذمّ العـرب أقبـح ذم!

فـالذي نأملـه في هـذه الثـورات الـتي نتغنـى بمحاميدهـا أن لا يكـون كـل شـيء لأصحابهـا بديهـة وارتجـالا.

الأسبوع العربي
أيلول ١٩٦٣

من خمس وثلاثين سنة!

اطلع الأستاذ فريد أبو شهلا على مقال نشرته من مدة في «الأسبوع العربي» ذكرت فيه الأسباب التي من أجلها أحب لبنان، وقد جاءت في المقال إشارة إلى والده المرحوم ميشال أبو شهلا، فاستنتج من ذلك أن والده كان من أصدقائي، ولم يخطئ في استنتاجه، فأحب أن يهدي إلي ديوان شعره وأن أرسل إلى «الجمهور» من حين إلى آخر بعض الخواطر.

لقد وجدت في هديته الحلوة: «أنفاس العشيات»، و في رغبته في الحصول على بعض خواطري، دليلاً قاطعاً على مبلغ وفائه لوالده وعلى مقدار حبه إياه، فوقعت مني عاطفته أحسن موقع، وحملتني على أن أجعل لي صلة بالمجلة التي أنشأها ميشال أبو شهلا على قدر ما يسمح به الفراغ.

إلا أني لما رجعت إلى «الجمهور» من أسبوع لأستأنس بأسلوبها وبخطتها ارتبكت بعض الارتباك، فقد وجدت أن «الجمهور» مجلة سياسية تعالج قضايا في السياسة تخص لبنان، ومن المؤسف أني غريب عن هذه القضايا، فليس لي علم بأسرارها وخصائصها، ولا قدرة لي على الخوض في بواطنها، فلست أعرف في هذه الناحية إلا

مقدار ما أسمعه في بعض المجالس من أصدقائي، فأنا أخاف إذا توغلت في موضوع السياسة في لبنان أن يزلّ بي القلم، ولذلك صحت عزيمتي على اجتناب هذا المسلك الوعر في مقالي وعلى الهرب من حاضر لبنان إلى ماضيه.

كيف كانت أحاديثنا في لبنان من خمس وثلاثين سنة، كنت أزور بيروت من حين إلى حين، فأقضي في مجلة «المعرض» بعض الوقت، أجتمع من خلاله إلى لفيف من الأدباء وفي مقدمتهم خليل تقي الدين، وميشال أبو شهلا، و إلياس أبو شبكة، وغيرهم وغيرهم، لم يكن للسياسة في مجالسنا ذكر، لا قليل ولا كثير، كنّا نغرق في الأدب ليس إلا، فلست أنسى طرح أولئك الأدباء الطيبين أسئلة علي تتصل بالمتنبي، فقد كنت عملت كتابي: المتنبي، مالئ الدنيا وشاغل الناس، فكانوا ينشرون في مجلة «المعرض» جواباتي، وكانت تلك الجوابات تطير في جو «المعرض» كما كان يطير معها دخان الأراكيل التي كنا نلهو بها، لم يكن يشغلنا من لبنان في تلك السنين إلا الأدب، وإلا الأدب وحده.

وهكذا كان شأني مع غير العصبة الكريمة التي أشرت إليها، فكنت أزور بشارة الخوري في مكتبه أو في مقهى من المقاهي فننصرف إلى حديث الشعر، وكم كنا نعجب من الغزل في شعر العرب، ومن تشبيه الحواجب بالأقواس والعيون بالسهام والسيوف والقامات بالرماح، فكأن غزلنا في القديم كان نوعاً من «الجبخانة»

أي مخزن سلاح!

ولم يكن اهتمام المرحوم جبران التويني بالشعر أقل من اهتمام غيره، فكان رحمه الله، صاحب ذوق رفيع في الشعر، ويدل على ذلك تقديمه لبعض القصائد في «النهار».

أما المرحوم عمر الفاخوري فكان ميله إلى «أناتول فرانس» لاتفاقهما في السخرية من الحياة، كانت هذه السخرية مواضيع أحاديثنا في داره مرة وفي سهراتنا مرة، فقد أولع بإمام السخرية كما أولعت به، فكنا متجانسين في الذوق في هذا الباب.

أين تلك الأيام الصافية؟ لقد مضت مجالس أدبها وذهبت نزعات أدبائها وشعرائها، فإذا زرت بيروت في هذا الزمن فهل أجد فيها من يهتم بالمتنبي أو بأناتول فرانس، مثل موضوعات الساعة في لبنان، وأهمها على نحو ما ذكره باسم الجسر في مقاله في «الجمهور»:

الطائفية..الإقطاعية.. الاحتكارية.. الرأسمالية.. الغوغائية.. الشارعية.. الاستزلام للخارج!...

هذه مفردات لم يكن لأكثرها ذكر من خمس و ثلاثين سنة، فما كانت تجري على أطراف ألسنتنا وأقلامنا، أما اليوم فقد تبدلت الأرض غير الأرض والسموات، وانتقل لبنان، كما انتقلت بلاد العرب كلها، من أفق إلى أفق، من طور إلى طور، ولا يعلم إلا الله وحده نتائج هذا الانتقال.

لقد نشأ شعار جديد في كل قطر من أقطار العرب، في بعض الأقطار نشأ هذا الشعار: الوحدة، الحرية، الاشتراكية، وخير لي أن أبعد عن هذا الميدان خوفاً من الزلل وأن أقبع في أفق الأدب وحده، فما لي ولأحاديث الوحدة و أخواتها!

غير أني إذا استطعت أن أنحدر من داري في بلودان إلى زحله فأتغدى في ظل واديها الظليل، ثم إلى شتورا فأتعشى في إحدى حدائقها الضاحكة، ثم إلى بحمدون فأتمتع من «نَفَسِ عجمي» في بعض مقاهيها، ثم أعود في منتصف الليل إلى مقري في بلودان دون أن يسألني أحد على حدود سورية وحدود لبنان:

أين الهوية...

إذا استطعت سبيلاً إلى كل ذلك فإني أؤمن حينئذٍ بالمرحلة الأولى من الوحدة!

الجمهور
١٩٦٣/٩/٦

obeikandl.com

دمشق....

إذا كان القارئ الكريم يأمل أن يجد في هذه السطور كل ما يتصل بدمشق من تاريخ وتقويم أو من سياسة واجتماع، أو من صناعات وتجارات، أو من رسوم وآثار، فليطرح هذا المقال وليفتش عن كتب أمعن أصحابها في مثل هذه الموضوعات وفي مقدمتها: «خطط الشام للأستاذ محمد كرد علي».

وصف دمشق في القديم والحديث كثير من الكتّاب، وصفها كتاب من العرب وكتاب من الإفرنجة، وتغنى بها كثير من الشعراء، فإذا حاولت أن ألخص في سطور محاسنها وآثارها، إذا حاولت أن أصف دُورها القديمة التي فتنت السياح، أو أصف حدائقها وغوطتها الخضراء، إذا حاولت هذا كله فإني أضيع في هذه الأمور ويضيع القارئ معي، ولكن الشيء الوحيد الذي توخيت الإفصاح عنه في خاطر وجيز مثل هذا الخاطر إنما هو شعوري وأنا ابن دمشق وليس أستاذ تاريخ ولا أستاذ تقويم البلدان.

لست أدَّعي أن دمشق تنفرد بالسحر أو بالفتنة، فإن كثيرا من مدن العالم فيها مثل هذا السحر ومثل هذه الفتنة، ولكنا إذا أحصينا البلاد التي تفتن العقول وتسحر القلوب فلا يمكننا أن

نطرح من هذا الإحصاء دمشق الشام، فما سألت مرة أجنبياً زار دمشق عن شعوره إلا وجدت في جوابه ما يدل على قوة هذا الشعور، فما هو السر في ذلك؟

إذا بحثنا عن هذا السر في عظمة مبانيها وطول شوارعها وعرضها، فهذه المباني وهذه الشوارع تكاد تكون لا شيء إلى جانب المباني والشوارع في المدن الكبيرة في العالم، ولقد كان في بعض دُورها القديمة شيء من الخصائص لا نجده في دور مدن ثانية، إلا أنّ هذه الدور التي كانت زينة دمشق وفتنة السياح قد ذهبت آثارها بسبب المدافع التي أطلقت عليها في الثورة، فقد أحرقت هذه الدور كلها فأحرق بذلك جزء هو من حضارتنا.

كانت لدمشق من أربعين أو خمسين سنة حياة خاصة في أعيادها ومجتمعاتها وسهرات أهلها، وأشهرها، المباركة ونزهها وأيام هذه النزه، ومساجدها ومقابرها وجنائزها وأعراسها وغير ذلك، وهذه الحياة الخاصة هي التي كانت تميز دمشق عن غيرها من المدن، ومن المؤلم أن هذه الخصائص كلها قد ماتت على الأيام فلم يبق لها شيء يميزها في حياتها الخاصة والعامة، فقد دخلتها المدنية الحديثة فعفت على كثير من عاداتها وتقاليدها ومجتمعاتها، وتفصيل هذه الأبواب كلها قد يطول أمره، فما الذي بقي من دمشق بعد توالي التاريخ عليها وبعد توالي الأمم؟.

لئن درست آثار كثيرة أو حدثت آثار كثيرة، لئن مرت أيام

التاريخ بدمشق ثم ذهبت هذه الأيام فقد بقي في دمشق وجهها الخاص، بقي سرها العميق الذي لم يدرس على الرغم من كل شيء، على الرغم من تعاقب أمم شتى وفاتحين شتى، وولاة شتى ظلموا ما ظلموا، أو عدلوا ما عدلوا، وأصلحوا ما أصلحوا أو أفسدوا ما أفسدوا، خربوا ما خربوا أو عمروا ما عمروا.

أقل ما يقال في دمشق أنها مدينة مخيفة ذات لغز مخيف، تخفى خصائصها على الذين لا يعرفونها أو لا يتعمقون في معرفتها، اعتدل كل شيء فيها، اعتدل حرها وبردها، لطف هواؤها وعذب ماؤها، وأثَّر هذا الإعتدال كله في أخلاق أهلها، فلا نجد في هذه الأخلاق على وجه عام قساوة أو شراسة ولكن الشيء المخيف الذي يخفى على الفاتحين والولاة إنما هو مزاج دمشق الباطن الذي لا يكاد يرى، فبينما تجد دمشق كالنسيم العليل إذ تجدها كالريح العاصف، وهذا ما غرَّ كثيراً من الفاتحين.

ولعل أقرب الأمم التي غرتهم إنما هم الفرنسيون، كانوا يعتقدون من خلال انتدابهم أن كل شيء هادئ في دمشق، وأن سياستهم ناجحة، كانوا يعتقدون هذا الاعتقاد أو كانوا يحملونهم على مثل هذا الاعتقاد ثم لا تلبث دمشق أن تهب من هدوئها كأنها صاعقة، فتكاد عقول الفرنسيين تطير وتكاد ألبابهم تذهب من بين جوانبهم. مدينة تنام في المساء وكأنها الحمل الوديع، ثم تستفيق في الصباح وكأنها الأسد الزائر، هذا شيء من خصائص

دمشق التي لم يعفها الزمن في جملة ما عفاه من آثارها وصناعاتها ودورها.

تستسلم حتى يكاد الإنسان يظن أنها ماتت، فإذا فاجأتها سياسة جديدة أو مذهب جديد أو فكرة جديدة، واعتقدت محاسن هذه السياسة وهذا المذهب وهذه الفكرة استسلمت فسايرت ما شاءت المسايرة، وأطاعت ما شاءت الطاعة ثم إذا رأت الاعوجاج آنقلبت على آلهتها فكفرت بما كانت تعبده قبل يوم أو عبدت ما كفرت به في أمسها.

مدينة مخيفة لا يتيسر لكل واحد أن يهتدي إلى أسلوب سياستها، فقد وجدنا طغاة انقادت لهم الأمور حتى دب خوفهم في القلوب، ثم زحلوا عن الصواب وزلت بهم أقدامهم، وإذا بدمشق تنقلب عليهم فيصير جبنها إلى شجاعة واستسلامها إلى عصيان، وما أعتقد أن معاوية نجح هذا النجاح في سياسته في الشام فأقام أربعين سنة، عشرين منها والياً وعشرين خليفة إلا لأنه عرف أخلاق أهل الشام وأمزجتهم وطبائعهم، فدخل الأمور من أبوابها ولم يدخلها من سطوحها.

لا أكاد أعرف مدينة مثل دمشق سريعة الهضم، سريعة التقليد، سريعة التمثيل، يقيم بها ابن مصر أو العراق أو فلسطين أو لبنان أو نَجْد، عشرين سنة أو ثلاثين سنة فلا يستطيع أن يغير لهجته في الكلام، ويذهب ابن دمشق إلى مصر أو العراق أو فلسطين أو لبنان

أو نَجْد، فلا يمضي عليه أسبوع حتى يتقن لهجة البلد التي يقيم به، كأنه ابن هذا البلد. لقد مر عليه الكثير من الفاتحين والغزاة ورأى كثيراً من الأمم فأخذ عنهم أشياء كثيرة حتى أصبحت له شخصية خاصة.

بيروت - الأسبوع العربي
أول كانون الثاني ١٩٦٤

obeikandl.com

عُمَرُ النص
والليل في الدروب

يقول أحد الكتاب الفرنسيين وقد زار فيلسوفاً من فلاسفة هذا العصر، ولم تترك هذه الزيارة في نفسه أثراً محموداً: إذا أولعت بكتَّاب كبار فإياك أن تسعى في معرفتهم عن قرب وذلك لتفاوت شخصيتهم الباطنة وشخصيتهم الظاهرة أي الإجتماعية، فكلما كانت الشخصية الباطنة شديدة، خصبة، متسعة، صعب عليها أن تظهر في المجتمع في حقيقة مظهرها، ومن هذا التفاوت ينشأ قلق الرجل المشهور من مواجهة الناس، وينشأ حذره وتحفظه، كما ينشأ انقباض وخيبة أمل في قلب الذي سعى في معرفته...

وسواء أصح هذا الرأي أم لم يصح إني أرى في صاحب ديوان: «كانت لنا أيام، والليل في الدروب» شخصيتين متفاوتتين، شخصية باطنة يغمرها العبوس، وشخصية ظاهرة يغمرها الابتسام، على أن سبب هذا العبوس شفقة عمر النص على وجود الإنسان وبكاؤه على آلامه في الحياة، فشعره إنما هو شعر إنساني، وهل الشاعر إلا صدى آلام الإنسان وأحزانه، فما كان عمر النص في شعره إلا هذا الصدى المبين، فإن تأملاته في ديوانه الثاني: الليل في الدروب، لم

تكن إلا إعراباً عن أسى البشرية وإفصاحاً عن عذابها، فالعبوس لا يرجع إلى طبيعة عُمَر النص، وإنما سببه ما تقع عليه عين الشاعر من مصائب الإنسانية، وعنوان الديوان وحده: الليل في الدروب يفسر لنا ذلك، فإن هذا العنوان إنما هو رمزٌ إلى قلق الإنسان وعذابه...

وكيف كان الأمر فإن الذي يسعى في معرفة عُمَرُ النص عن قرب لا يحس بانقباض وخيبة أمل، وإذ لم يتم التناسق بين عبوس عُمَرُ النص في باطنه وبين إبتسامه في ظاهره فقد تم هذا التناسق بين شعره الظاهر وبين روحه الشعرية الباطنة...

خلق الله عُمَرُ النص فخلق فيه روح الشعر، ولست أريد بهذه الروح الخيال وحده أو اللغة الشعرية وحدها، وإنما أريد بها شيئاً آخر لا يكون إلا في تركيب الإنسان وهو الحس والذوق، فإذا كان للشعر باب فما بابه إلا هذا الحس وهذا الذوق، فكثير من الشعراء نجد في شعرهم خيالاً قد يكون مديداً ولغة قد تكون باطنة ولكنا لا نجد لهم روح الشاعر لأن الله تعالى لم يهب لهم حس الشاعر وذوقه.

على أن عمر النص لم يحرمه الله خيال الشعراء ولا حرمه لغة الشعراء، وإذا كان في صوره الشعرية ابن هذا العصر فإنه في لغته ابن العصور التي نضجت فيها لغة الشعر واختمرت فيها أساليبه، فقد غاص في هذه اللغة على اللآلئ فنبشها من مدافنها، وصف

كل لؤلؤة إلى جنب أختها، فما نكاد نجد في أكثر شعره إلا درراً منسقة كأن صاحبها صائغ من أمهر الصائغين.

وكثيراً ما نقع في شعر هذا العصر على صور قد تكون طريفة إلا أن أصحابها لم تكتب لهم مهارة في انتخاب اللغة التي تناسب هذه الصور فتضيع صورهم وتختل محاسنها، أما عمر النص فإنّا نجد في شعره محاسن الصور قد عرضت في محاسن المعارض، وهل الشعر بعد الروح الشعرية وبعد السر الإلهي إلا هذا التنسيق البديع الذي لا تستوحش فيه لفظة من أختها...

وسواء أشاع يأس إنساني في باطن عُمَر النص، أم شاع أمل في ظاهره، إني أرى روح الشعر تتجلى في هذا الظاهر وهذا الباطن، فهنيئاً له هذه الروح الشعرية.

النقاد

١٩٥٨/٣/٢١